ومعرفة الإعراب أرفع مرتقى فطوبى لمن يرقى إليه ويصعَدُ
وعلم المعانى والبيان كلاهما مراق إلى علم البديع ومصعد

* * *

وزاد هذا اللون من المديح فى أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين حتى ابتذل ابتذالاً ، فأصبح الشاعر يمدح رسالة تصله أو رقعة تبلغه أو كتاباً يتصفحه ، وامتلأت الدواوين بما سموه « تقريظ الكتب » حتى لكأن المؤلفين أنفسهم يطلبون ذلك من الشاعر ، كما يطلب آل المولود شيئاً من الشعر فى مديحه يفتتحون به حياته ، أو كما يطلب المتزوجون قصيدة لزفافهم ، فكان المداحون يعمدون إلى تلبية هذه الرغبات والأمنيات ! ويضيفون إليها ما سموه بتأريخ هذه الأحداث ، فاستعملوا حروف الجمل بحيث يكون مجموع الحروف الأخيرة معادلاً لتاريخ هذه المناسبة . وليس هذا من الشعر فى شىء إنما هو نظم وتقفية ، يطلبه الطالبون فيلبى النظامون من غير شعور أو عاطفة أو إحساس بما يقولون ، فهو مصطنع متكلف مزيف ، شبيه بهذا الإنشاء الذى يكتبه المأجورون فى نميقة ترفع إلى المحاكم ، أو طلب يرسل إلى الحاكم ، أو رسالة تسطر باسم رجل أمىّ لا يقرأ ولا يكتب ؛ لا تعبر عن نفس كاتبها فى شىء . وليست تدخل فى موضوع بحثنا هنا ، لأنها ليست من الأدب ، فهو فى عرفنا يجب أن يصور نفسية الأديب وحاله حين كتب .

وقد تطرق بعض شعرائنا فى القرن العشرين إلى مديح العلماء والكتّاب والشعراء ، وخص صفحات من ديوانه بشىء من ذلك ؛ نورد أمثلة منها لبيان صورة المديح لهذا العصر . ومنهم إسماعيل صبرى ، فقد أكثر من هذا اللون ، وأسهب فيه ، وعزيز علينا أن نحصى ما قال وأن نعرضه جميعه ، فقد مدح كتاب السفر لأحمد زكى ، وكتب إلى صاحبة مجلة يثنى على همتها فى صحيفتها ، وأرسل إلى شوقى يهنئه ، وإلى محمود خاطر يشكره على مختصر القاموس فى اللغة .